الإمام علي عليه السلام والمنهج المادي العقلي لعصر الأنوار

(قراءة معاصرة)

الأستاذ المساعد الدكتور
محمد حسين علي السويطي

المدرس الدكتور
علي خوير مطرود

جامعة واسط ـ كلية التربية

الإمام علي عليه السلام والمنهج المادي العقلي لعصر الأنوار (قـراءة معاصرة)

الأستاذ المساعد الدكتور
محمد حسين علي السويطي

المدرس الدكتور
علي خوير مطرود

جامعة واسط ـ كلية التربية

المقدمـة:

اكتسـب عصـر الأنـوار (بالفرنسـية: Siècle des Lumières) أهميـة استثنائية في التاريخ العالمي الحديث؛ لأنه مثل نقطة تحول تاريخية وفكرية غيرت مسار العالم باتجاه إتباع أفكار وفلسفات كانت محرمة حتى الأمس القريب، فلم يعد العالم بعد عصر الأنوار عالماً يعتمد التأويل النابع من الفكر الغيبي الثيولوجي والخرافي في تفسير ظواهر العالم وتنظيم سلوكيات الإنسان اليومية، بما تضمنه تلك السلوكيات من مفردات تعامل يومي، سواء على صعيد النظم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، بل حتى الثقافية والدينية منها، وسمح عصر الأنوار للإنسان أن يفكر ملياً في قدرته العقلية على التعامل مع الواقع، ومـن هنـا راح الإنسـان في عصـر الأنـوار يعيـد صـياغة كـل شـيء ويطـرح التساؤلات عن جدوى وأحقية كل شيء يحيط به.

وبعد ظهور هذا الفكر داخل الجامعات والمؤسسات التعليمية الأخرى، أعلنـت المؤسسـات الدينيـة الحـرب عليـه، واعتبرتـه فكـراً إلحاديـاً وكـافراً، وصـدرت قـرارات الحرمـان والموت بحـق العشـرات مـن الأسـاتذة الأكـاديميين والمفكرين.

وبمـا إن المؤسسـات الدينيـة والعلميـة الأكاديميـة بإجمالهـا تشـكل دوراً تكاملياً في بناء الأمة أو الجماعة الصالحة، على الرغم من وجود تباين في بعض وجهات النظر التي يحاول البعض تجاوزها، لإثبات وحدة الموضوع بين

الاثنين بحسن نية، إلا إن الواقع يظهر وجودها ولو على نحو أجمالي، لا لاختلاف في الهدف، بل في الكيفية والشروط التي يجب أن يتحقق بها، ومن اجل الوقوف على حقيقة ذلك التباين جاءت محاولتنا البحثية هذه الموسومة (الإمام علي عليه السلام والمنهج العقلي لعصر الأنوار-قراءة معاصرة-)، لبيان مواطن الاختلاف في واحدة من أكثر الجزئيات التي وقع حولها الجدل والخلاف، بين الدين والعلم، والإشارة هنا إلى (المنهج العقلي والمدى الذي يمكن ان يعتمد فيه)، والحديث عن الرؤية الدينية لعصر الأنوار ومنهجه المادي المجرد، وعلى الرغم من أن البعض، وفي مرحلة متقدمة حاول أن يمازج بين الفكرين، إلا أنهم لم يحققوا نجاحات تذكر، لاختلاف الرؤية التي انطلق منها الاثنين، فاستمرت الحرب بينهما حتى قسمت أوربا إلى ثقافتين ومنهجين وطريقين مختلفتين في طلب المعرفة، احدهم ديني بحت والآخر مادي مجرد.

واخترنا الإمام علي عليه السلام ليكون أنموذجاً للرؤية الدينية لعصر الأنوار ومنهجه المادي المجرد، ليس لكونه إمام معصوم فحسب، بل لأنه صاحب مدرسة علمية ومعرفية عريقة امتد نفوذها لكل أنواع المدارس الدينية في نواحي الإسلام المختلفة، والغرض من تناولنا لهذه الجزئية لتثبت بان الحكم الذي صدر بالتفريق فكرياً وسلوكياً بين عصر الأنوار والدين، كان دون تمعن أو دراسة، وإذا ما نجحنا في جذب الانتباه لهذه الخصيصة، فإننا سنمهد لبداية مرحلة جديدة للتوأمة بين الطرحين الديني والأكاديمي.

ومن اجل أن تتضح الدعوة التي ندعو إليها لإعادة دراسة عصر الأنوار في ضوء النظرة الإسلامية إليه، وليس المسيحية بتقسيماتها المختلفة، لا بد أن نرسم خطين، احدهما لاستعراض الطرح المعرفي لفكر عصر الأنوار وفق المنهج المادي، والآخر، الطرح المعرفي للفكر الديني في إطار منهجي مادي عقلائي ومحدود التجريد.

وقد اقتضت ضرورة البحث أن نقسم محاولتنا البحثية هذه على مبحثين، مصدرة بمقدمة وضحت فكرة البحث ومسوغات اختياره، فاستعرضنا في المبحث الأول (مفهوم عصر الأنوار وموقف الإسلام من المنهج العلمي العقلي)، بمحورين رئيسين، هما: الدلالة الاصطلاحية لمفهوم عصر الأنوار والإسلام والمنهج العلمي العقلي، ووضحنا في المبحث الثاني (المشتركات بين المنهج العلمي العقلي الديني للإمام علي عليه السلام والمنهج العقلي المجرد لعصر الأنوار)، بتوطئة بينت مفهوم العلم والعقل والدين ومبررات وجود مشتركات بينهما، وسبع محاور هي: الاعتماد على الملاحظة، والاعتماد على الاستدلال، وقطعية اعتماد الدليل العقلي، واستمرارية البحث وعدم الاكتفاء بالنتائج الآنية، والبحث وفق أسس منطقية وليس فوضوية، فضلاً عن التجربة والموضوعية ومشتركات أخرى بين المنهج العقلي الديني للإمام علي عليه السلام والمنهج العقلي المادي لعصر الأنوار.

ختاماً نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا في إعطاء موضوع الدراسة قيمته العلمية التي يستحقها، ويبقى عملنا هذا من صنع البشر، فما كنا فيه من صواب فذلك بفضل الله وبتوفيق منه، وان تسربت إليه الهفوات فالإنسان خطاء ما عاش، والكمال لله وحده.

المبحث الأول

(مفهوم عصر الأنوار وموقف الإسلام من المنهج العقلي)

أولاً- الدلالة الاصطلاحية لمفهوم عصر الأنوار:

ظهر مصطلح الأنوار أو التنوير (Enlightenment)[1]، في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوربا تعبيراً عن الفكر الليبرالي البرجوازي ذي النزعة الإنسانية العقلية والعلمية والتجريبية، وتضمن نزعة مادية واضحة بعد إقصاء اللاهوت، وذلك بإحلال الطبيعة والعقل بدلاً من الفكر الغيبي

الثيلولوجي والخرافي في تفسير ظواهر العالم ووضع قوانينه، وقد ساد أوربا في القرن الثامن عشر بتأثير طبقة من المثقفين الذين طبعوا القرنين السابع عشر والثامن عشر بطابعهم الثقافي، حتى أطلق على هذه المدة اسم (عصر العقل - The age of reason)، أو (دين العقلانية)[٢]، وكان التنوير نتاجه، ومصطلح التنوير يعود إلى هذا العصر بالذات، ولكي نفهمه ينبغي أن نقارن التنوير بالظلمات، والواضح بالغامض، على الرغم من أن المصطلح يحتوي أيضاً على معنى أخلاقي وبستمولوجي (معرفي)[٣].

وتعني عبارة عصر التنوير اختصاراً الحركة الفكرية والثقافية والفلسفية التي سيطرت على أوروبا عامة، وفرنسا خاصة، في القرن الثامن عشر الميلادي، وإن كان البعض يحددها أساسا في المدة بين عامي (١٦٨٥ و١٨١٥)، وتركزت جهوده المؤيدين لها على محاربة القهر والطغيان الكنسي المتواصل، بل لقد تمخض عن هذا التيار التنويري عبارة "معاداة الاكليروسية anticléricalisme" التي صارت مذهباً ممتداً حتى يومنا هذا، ومن أشهر العبارات التي أُطلقت آنذاك، ووصفت عصر الأنوار وموقفه من الدين أو الكنيسة تحديداً، ما قاله الأديب الفرنسي إميل زولا (1840-1904م): "إن الحضارة لن تصل إلى كمالها حتى يسقط آخر حجر من آخر كنيسة على آخر قسيس"[٤].

وعلى الرغم من ذلك التصور الأولي لمفهوم عصر الأنوار، فان موقف العلماء جميعهم كان إيجابياً منحازاً للدين في القرن السابع عشر، إذ أقبلوا على الدين الطبيعي، وحاولوا أن يبرهنوا على وجود الله - تبارك وتعالى- عبر توظيف قوانين الطبيعة ونواميسها العجيبة التي توصلوا إليها في نطاق العلوم الطبيعية[٥].

فقد كان غاليليو كاثوليكياً، ولم يكن يرى أي تعارض بين قناعاته العلمية

ومعتقده الديني، وكان يؤمن بأهمية الكتاب المقدس، غير انه أعتقد بان هذا الكتاب لا يتحدث عن حقائق علمية، بل تناول معطيات معنوية روحية تتصل بالتقوى واستقامة الإنسان، وهي حقائق تفوق على العقل والبرهان، ولا يمكن اكتشافها بوساطة الحس، ولا يتقاطع مصدرا المعرفة هذين، لان الله - عزّ وجل - هو صاحب كتاب التكوين (الطبيعة)، وهو الذي أوحى كتاب التدوين، وهو ما نستشفه من قوله: "إن الطبيعة هي المصدر الوحيد للمعرفة العلمية، كما في وسعها ان تكون مصدراً لبحوث اللاهوت وطريقاً إلى معرفة الله"(٦).

أما توماس الاكويني فقد اعتقد باستحالة التعارض بين العقل والوحي، وهو ما حفزه للتوفيق بينهما، ورأى إن أهم حقائق الإلهيات ليست في متناول يد البشر، وهو دليل على ضرورة الوحي، أما العقل فهو قادر على إدراك بعض الحقائق للاهوت نظير وجود الخالق، كما إن الله - عز وجل - هو المدبر الدائم للعالم وليس خالقه فحسب، وهو سبحانه عادة ما يتولى ذلك بواسطة الأسباب الطبيعية غير انه يظهر قدرته أحياناً عبر الخوارق والمعجزات(٧).

وقد مر التنوير بثلاث مراحل، الأولى: كان الباحثون يعدون مذهب العقل ودين الوحي منهجين متبادلين يؤدي كل منهما حقائق أساسية، وفي الثانية: شاعت رؤية الدين الطبيعي (Deist)، وراح يعد بديلاً للوحي، أما المرحلة الثالثة فقد اكتسبت طابعاً تشكيكياً إلحادياً، فجرى رفض الدين بأنماطه المختلفة، سواء أكان منه ما كان قائماً على الوحي، وما استند إلى العقل(٨).

وقد أصبح التنوير بالنسبة إلى المثقف الأوربي المعاصر مسألة تاريخية، أي في ذمة التاريخ، ونقصد بذلك انه يدرسه لكي يعرف كيف تشكلت حضارته الحديثة، ولكي يراجع الأخطاء أو الانحرافات التي حصلت على مدار المسار الطويل، ولم يعد التنوير سلاحاً ضد الأصولية الدينية (التي تمثلها الحوزة

ومراكز الدين بالنسبة للمسلمين)، كما كان عليه الحال في زمن (فولتير، أو ديدرو - أو رسو)، أما التنوير بالنسبة إلى المثقف العربي فهو مسألة حياة أو موت، وجود أو عدم وجود[٩].

ومع ظهور غاليليو ونيوتن وديكارت في القرن السابع عشر، ولد العلم الحديث، وكان من خصائص هذه المرحلة العلمية الاعتماد على البرهان الرياضي والملاحظة التجريبية، وأقصي هم البحث عن الغايات، حيث تم التركيز على وصف الظواهر فقط[١٠].

وهذه الرؤية العقلية المجردة لها معنى آخر في المفهوم الإسلامي، ونحن حين نقول المفهوم الإسلامي، نعني بالضرورة الإسلام المحمدي الأصيل الذي مثله أئمة أهل البيت عليهم السلام، وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام.

ثانياً- الإسلام والمنهج العلمي العقلي:

العلم بمعناه الأشمل هو التعرف على الأشياء كما هي في حقيقتها وواقعها، ولا وزن لأي علم عند الإمام علي عليه السلام إلا إذا جلب نفعاً، أو دفع شرّاً، تماماً كما قالوا عن العقل، لأن العلم عقل، والعالم هو العاقل، قال العالم والفيلسوف جابر بن حيّان تلميذ حفيد الإمام علي، الإمام جعفر الصادق عليه السلام ما مفاده: العقل والعلم والنور كلمات مترادفة، فالعالم يعقل الأمور ويميز بين صحيحها وسقيمها، ولا يستطيع أن يكسب علوماً بدون العقل، وبالعقل يتمكن العالم من كشف الأمور الغامضة وإخراجها من الظلام فيوضحها بنور عقله، لذا قيل في تعريف العقل بأنه "القوة أو الحالة في النفس التي تحصل بالتدريج عن طريق التجارب العملية، وملاحظة الآراء والسلوكيات المختلفة، ويقال للفرد صاحب الخبرة والتجربة في العرف العام (عاقل)، وهذا العقل له مراتب من الشدة والضعف"[١١].

والمقصود بالعلم الذي يتبناه الإسلام، هو كل علم نافع، يرفع من قدر

الإنسان، وينمي عقله ليطلع على جوانب الحياة المختلفة، ويجعله أكثر خبرة بأمور الدين والدنيا وأحوالها[١٢]، فالمعارف والفنون والصناعات هي أساس الحياة، وقد أكد الإسلام على تعلمها ونشرها[١٣]، فعندما يهتم القرآن الكريم بالعلم والعلماء، يعني أنه اهتم بأصل الحضارة ومنبعها الأول[١٤].

وهذا يعني إن العلم والتفكير العقلي هو سبيل الإسلام الأساس في بناء المجتمع وتطوير حضارته، وبهذا فأنه لا يوجد تقاطع تام بين طبيعة التفكير الذي ساد في عصر التنوير، وكان أساساً للحضارة الأوربية والتقدم العلمي لمجتمعاتهم اليوم، وبين منهج الإسلام الذي دعا إلى التمعن في أسباب كل ظاهرة ودراستها، وهو ما يتوضح من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: "اَبَى اللهَ أن يَجْرِيَ الأَشْيَاءَ إلا بِاَسْبَاب فَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْء سَبَباً"[١٥].

وللعقل في الإسلام، الذي اقترنا في تمثيله هنا على شخص الإمام علي عليه السلام، بصفته خليفة رسول الله، كما هو وارد في السنة والأثر، مكانة فريدة لا يكاد يضاهيها شيء، فهو أساس كل شيء والمحرك لكل شيء والمسؤول عن كل شيء، بل لم يرد - إذا لم نبالغ - إن ساوى عليه السلام بين العقل وأي شيء آخر على الإطلاق، فامتلأت الكتب بالأحاديث والروايات التي نقلت عنه عليه السلام بخصوص العقل، بأبعاده المادية والمعنوية، ومعانيه الحقيقية والمجازية.

ومن ذلك قوله عليه السلام: "العقل غطاء ستير"[١٦]؛ لأن "فيه خصال شتى: الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفوف، ونصيبه من الدنيا القوت"[١٧]، و"الشقي من حُرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة"[١٨]، بل اعتبر عليه السلام إن أفضل ما يُعبد به الله تعالى هو العقل، وهو ما يفهم من أقواله عليه السلام: "ما عبد الله بشيء أفضل من العقل"[١٩]، و "لا دين لمن لا عقل له"[٢٠]، و"على قدر العقل يكون الدين"[٢١]، بمعنى

أنه عليه السلام جعل الدين مقرون بالعقل إذا ما زال زال الدين معه.

وضمن الإمام عليه السلام خطبه وتوجيهاته للمجتمع رواية عن العقل، ليبين لهم فضله، نصها: "هبط جبرئيل على ادم عليه السلام فقال: يا ادم إني أمرت أن أخيرك بين ثلاثة، فأختر واحدة ودع اثنتين، فقال له ادم: يا جبرئيل وما الثلاثة؟ فقال العقل والحياء والدين، فقال ادم: فاني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه، فقالا: يا جبرئيل إنا أومرنا أن نكون مع العقل حيث كان"(٢٢)، مؤكداً لهم عليه السلام في هذه الرواية إن وجود الإنسان ونجاحه مقترن بتوظيفه عقله في المواقف التي يمر بها في مجالات الحياة المختلفة، لذلك ألزمهم عليه السلام بـ"شأنكم العقل"(٢٣).

وجدير ذكره في هذا الموضع، إن الهداية التي أشار إليها الإمام علي عليه السلام في حديثه: "اَلعَقلُ يَهدى وَيُنجي"(٢٤)، هي اعم من الهداية الدينية، بل أن الهداية الدينية هي مصداق واحد فقط من مصاديقها، وبهذا يكون العلم والتقدم الحضاري من مصاديقها أيضاً، فاعتماد العقل وسيلة متقدمة يمكن أن تهدي إلى كشف الحقائق بكافة مستوياتها بما في ذلك الحقائق ذات الأبعاد العلمية.

إن هذه الأهمية التي أولاها الإسلام ممثلاً بأمير المؤمنين عليه السلام للعقل هي ذاتها التي أولاها علماء عصر التنوير للعقل، وعلى الرغم من إن البعض حاول أن ينكر ذلك إلا إننا سنتلمس في الأسطر القادمة عدداً من المشتركات بين الطرفين، والتي أسس لها الإمام عليه السلام، لكن وكما أشرنا سابقاً لا من باب التكافؤ العلمي، بل من باب الاشتراك في المنهج، وعلى اعتبار إن المقدمات المتشابهة تعطي نتائج متشابهة.

ولغرض الوقوف على المشتركات بين المنهج العقل في عصر التنوير الذي أوجده ودعا إليه العلماء الماديون والمتنورون في أوربا، وبين المنهج العلمي

العقلي للإسلام الذي أسس له الإمام علي عليه السلام، لا بد أن نتعرف على ما إذا كان التنوير ضد التدين؟ وهل علينا استبعاده وتكفيره بوصفه عنصر هدم في العقيدة الإلهية؟ أم السعي لفهم منطقه العلمي لتعزيز قدرة واجب الوجود وإيصالها لعقول العوام عبر الأدلة المادية؟ وهل يجب أن نقف بصورة اعم بوجه التنوير أو منهجه العلمي بصورة مطلقة، أم نطالب بتشذيبه وانتزاع صفة المادية المطلقة والمجردة منه، وتلمس المادية العقلانية المرتبطة بالبعد الديني الذي يدعمها أو تدعمه؟.

إن الإجابة على هذه التساؤلات، ولو بالمجمل، فيه شيء من الصعوبة التي تنبع من منطلقات عديدة، من بينها، التفسير أو المعنى الذي يقبله الإسلام لمصطلح التنوير أو المنهج العقلي (بصفته المادية المجردة)؟ فهل يقبله كما وصفه الأوربيون؟ أم يرى ضرورة تطويعه في إطار ديني صحيح؟، فالعقل البشري كما يره اغلب رجال الفلسفة والدين "بدون مساعدة العقل الإلهي يضل ويضيع ويذهب في متاهات لا نهاية لها"[٢٥].

ويُعد البحث عن العلاقة بين العقل والدين من الأبحاث المهمة في الكلام الجديد، ولا يخفى على احد ما لهذا البحث من أهمية، لأنه مثار جدل منذ زمن بعيد بين المتكلمين سواء في ذلك العالم الإسلامي أو العالم المسيحي والبحث هو عن طبيعة العلاقة بين الدين والعقل؟ وهل هي علاقة تضاد وتعاون؟ أم هي علاقة وئام ووفاق؟ أو غير ذلك؟[٢٦].

وقد بحث كثير من الغربيين حول العلاقة بين العقل والدين أو العقل والإيمان، ومن هؤلاء: توماس الاكويني، وكيرليجارد، وباسكال، ووليم جيمز، وكالفن، وكارل بارث، وهيوم، ومايكل بيترسون، وغيرهم، والنظريات الثلاث الرئيسة بين المنظرين الغربيين حول العلاقة بين العقل والأيمان (الدين)، هي: الاتجاه العقلي الأكثري، والاتجاه العقلي الانتقادي،

والاتجاه الإيماني الخالص[٢٧].

وهناك اختلاف بين علماء المسلمين في هذا الموضوع أيضاً، فأهل الحديث والحنابلة الموصوفون بـ(السلفية) ينكرون عقلنة الدين والتعاليم الدينية مطلقاً، ويعدون كل تساؤل عن تلك القضايا بدعة محرمة، بينما تعتقد الفرق الأخرى كالمعتزلة والأشاعرة والإمامية إن استعمال العقل والمنطق في الاعتقادات والتعاليم الدينية جائز بل واجب[٢٨].

إن الإسلام بصورة عامة لم يقم يوماً بتمجيد البعد الخرافي اللاعقلي في مناهجه أو طروحاته المعرفية، فطالما دعا الإسلام إلى استخدام العقل في كل حيثيات الوجود، ما تعلق منها بالله والتعبد، أو ما تعلق منها بالإنسان وحضارته وتطويعه كل ما سخر الله له مما خلق في عالم الإمكان.

وقد مثل الإمام علي عليه السلام عمق الفكر الإسلامي، والكيان الذي عبر طيلة التاريخ عن حقيقة الإسلام، فطالما نبهوا لضرورة الإصلاح المستمر لدواع عديدة، من بينها عنصرا الزمان والمكان، فبما إن الإنسان يعيش في الزمان، فلابد انه سيخضع لمجموعة من المتغيرات التي تحصل في هذا الزمان، فتؤثر في طبيعة علاقات أفراد البشر فيما بينهم وعلاقاتهم بالمحيط الذي يعيشون فيه، سواء أكان ذلك في بيئتهم الثقافية أو السياسية أم غيرها[٢٩].

وإذا كان العلماء على نسق عصر التنوير يتبعون العقل، فلا يتعارض ذلك مطلقاً مع ما دعا له الإسلام ممثلاً بالإمام علي عليه السلام من باب تتبع منهجاً عقلياً، الذي أكد على إن العقل احد مصادر المعرفة كالوحي والحواس والتجربة، أذن فهو عليه السلام يضعه في مرتبة الحواس والتجربة، والأخيرة، هي عين ما تقوم عليه فلسفة عصر الأنوار ومنهجه العلمي، الذي قدم التجربة على التفسيرات الميتافيزيقيا، وفي نقد العقل العلمي والعقل المجرد التأملي وضع عليه السلام قانوناً فلسفياً خالداً لم يتغير منذ خلقت العقول الإنسانية، وهم بذلك قد سبقوا

فلاسفة الدنيا من قدامى ومحدثين، وفي مقدمتهم أمامهم وعميدهم (عمانوئيل كانت) الألماني، ناقد العقل البشري كما وصفه أصحاب الدراسات الفلسفية الحديثة في الغرب والشرق[٣٠].

المبحث الثاني

المشتركات بين المنهج العقلي الديني للإمام علي صلى الله عليه وآله والمنهج العقلي المجرد لعصر الأنوار

تمهيد: مفهوم العلم والعقل والدين ومبررات وجود مشتركات بينهما:

العلم هو منهج يعتمد على المراقبة والتحديد والبحث والاختبار والشرح، بحسب نظرية لظاهرة (طبيعية) معينة، أما الدين فهو رؤية إلهية للكون، لها علاقة بالواقع، لذلك يعتمد هو الآخر على مجموعة من الأدوات والرسائل التي تشكل في النهاية منهجه العلمي للتعامل مع الظواهر المختلفة بأبعادها المادية أو الغيبية، وعلى قدر تعلق الأمر بموضوع البحث، فان هناك مشتركات عديدة بين المنهج المادي (العقلي) والمنهج المادي (الديني)، وتلك المشتركات هي التي تشكل في النهاية حالة التقارب بين الرؤية الدينية والرؤية المادية اللتين عكسهما المنهجين المتبعين، فالعالم الباحث ومنهج البحث العلمي المادي والنتائج التي يتم التوصل إليها، كل ذلك يتم إدخاله في بودقة الدين، والرؤية التي تقوم بتفسير كل شيء دينياً[٣١].

ولو ركزنا البحث في تلك المشتركات، لوجدناها واضحة في نهج الإسلام الحقيقي، الذي مثله رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وفي طليعته الإمام علي عليه السلام لاعتماده المنهج العلمي العقلي، لاسيما وأن الدين مثل لديهم شيء أكثر من مجرد عبادة، بل هو منهج للحياة، يقوم على أساس أنه قوة مادية قائمة في واقعها، والذي حصرناه في رؤية علماء عصر التنوير، وبمقدمة تلك

المشتركات، الرؤية للمادة التي شكلت قوة فاعلة في الدين، لإدراك المشرع أثرها في تحريك الواقع والمجتمعات البشرية، بما في ذلك النظر بعلمية للظواهر وتأويلها، وهي الركيزة ذاتها التي يستند عليها المنهج العلمي لفكر عصر الأنوار.

أولاً: الاعتماد على الملاحظة:

إن أهم المشتركات التي يمكن إدراكها وتلمسها بوضوح بين المنهج العقلي المجرد لعلماء عصر الأنوار والإسلام ممثلاً في الإمام علي عليه السلام، هي الملاحظة، وبهذا الصدد قال الإمام عليه السلام: "العقل دعامة الإنسان، ومن العقل الفطنة والفهم والحفظ والعلم"(٣٢)، وهي معادلة علمية للبحث غاية في الإتقان، فقد وضع الإمام عليه السلام العقل وهو جوهر الفكر والفهم عند التنويرين في منزلة الدعامة من الإنسان التي إذا ما أزيلت أزيل معها مفهوم الإنسان العالم لأنه متقوم بها، وهو (أي العقل) عند الإمام عليه السلام يحصل به العلم عبر سلسلة من البحث العلمي المضني التي تبدأ بالفطنة التي تتأتى من الملاحظة، وبعد ان تحصل الأخيرة ينتقل العقل إلى مرحلة جديدة من العلم، وهي البحث عن محاولة الفهم عبر تحويل تلك الملاحظة لبيانات علمية تتحول إلى علم بعد حفظها، لذلك أكد عليه السلام حقيقة إن "كثرت النظر في العلم يفتح العقل"(٣٣).

لقد أكد الإمام علي عليه السلام إن كثرة النظر (الملاحظة) نتيجتها الحتمية تفتح العقول بما يقود إلى الوصول إلى فهم حقيقي للظواهر الطبيعة بصورتها العامة، لذلك قال عليه السلام: "من نظر اعتبر"(٣٤)، ولما سأله رجل أين كان ربك قبل أن يخلق السماء والأرض؟ قال: "أين سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان"(٣٥)، فالملاحظة عنده عليه السلام بوابة الاعتبار ومفتاح الحقيقة، والاعتبار هنا مطلق الاعتبار، ومعناه الأشمل، ولا يحدث إلا بتفتح العقل والتدبر، ومن إدراك الحقائق، فالإمام عليه السلام في منهجه العقلي يرفض قبول الأشياء على

علاتها دون النظر فيها مطولاً، وفهم مبدأها ومنشأها وختامها، بحسب أسس علمية عقلية بحتة، تبدأ بالملاحظة وتسخير العقل لفهمها، وكل تلك العلمية هي جوهر البحث العلمي الذي اتبعه علماء عصر التنوير، إذ قدموا الملاحظة والتجربة على كل شيء آخر، ويتضح هنا تشابه المنهج، لكن اختلاف الإطار الذي يمارس فيه، فعند التنويريين منهج عقلي مجرد بالمطلق، وعند الإمام علي عليه السلام منهج عقلي في إطار الدين والمعرفة الإلهية.

ولو تعمقنا في قراءات المنهج العقلي المجرد، فإننا سنجد إن كثيراً من علماء عصر التنوير حاولوا تجاوز هذا الفهم والفارق بين الاثنين، مؤكدين على إن لا يوجد تعارض حقيقي بين الاثنين، وهو ما نستشفه من قول عالم النبات الأمريكي الشهير (ايزا غراي 1880-1810 Aisa Gray): "ان في وسعنا تكوين فهم أفضل لتاريخ الطبيعة العام من خلال الأيمان بوجود هدف وغاية في هذا الإطار"، وبالمعنى نفسه قال داروين "إن قوانين الطبيعة لا تتقاطع مع الأيمان بالله بوصفه العلة الأولى، حتى انه تحدث عن القوانين الطبيعية بوصفها وسائط ثانوية يمارس الله الخلق من خلالها"[٣٦].

ثانياً- الاعتماد على الاستدلال:

يُعد الاستدلال العقلي احد أهم الموارد المكونة للمنهج العقلي [المادي] لعلماء عصر التنوير، فهم يعتمدونه طريقاً للوصول إلى تفسير الأشياء وفهم الظواهر بأشكالها وأنواعها المختلفة، والاستدلال على نوعين، استدلال نظري ينشأ في الغالب من مقارنة أو مقاربة مقدمات معينة تقود إلى استدلالات نهائية أو غير نهائية، واستدلال عملي يقوم على أساس مقاربة ومقارنة المقدمات، لكن عبر البحث العلمي والملاحظة، ومن ثم التجربة، لتحويله إلى نظرية أو قانون في نهاية المطاف.

وهو أمر يعني في مفهوم علماء عصر التنوير، استبعاد الفهم أو التأويل

الديني، والاعتماد على التأويل العلمي في تفسير الظواهر المادية، وهو فهم فيه الكثير من المشتركات مع ما اعتمده الإمام علي عليه السلام في منهجه العقلي، لكن - كما أسلفنا - في إطار ديدني معين، وهو ما نفهمه من قوله عليه السلام: "إن أول الأمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع بشيء إلا به العقل... استدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه من سمائه وأرضه وشمسه وقمره وليله ونهاره"(٣٧)، وحديثه عليه السلام أوضح من أن يشرح، فالعقل عنده ميزان الانتفاع، والأداة التي يمكن من خلالها الاستدلال على كل الظواهر الطبيعة، التي لا يمكن في الغالب التعرف عليها إلا عبر استخدام العقل في مجالات التجربة والبحث والدراسة والاستقصاء واستخدام كل الوسائل المادية الحديثة لفهم تلك الظواهر والتعامل معها، فلم يقبل الإمام عليه السلام الأيمان المطلق بالأشياء دون معرفه علاتها وفهمها، فقد حدد عليه السلام في حديثه هذا منهج علمي عقلي شابه أو كاد ما ذهب إليه علماء عصر التنوير، فقد طالب أن يستدل على الأشياء والظواهر الكونية عبر العقل للوصول الى الفهم، فهم مبدأ الأشياء وقوتها ونشأتها، وعد كل محاولة فهم لها يتجاوز العقل غير نافعة، فحديثه عليه السلام ضم مصطلحات علمية تضمنها المنهج العلمي العقلي لعلماء عصر التنوير، هي: كالرؤية (الملاحظة) والاستدلال، اللذين يؤيدان الفهم.

وذهب الإمام علي عليه السلام أبعد من ذلك في اعتماد الاستدلال العقلي، فاعتبره أحد أهم وسائل التعرف على الخالق وكل ما له علاقة بالظواهر الطبيعية وفهم أسرارها، إذ عد عليه السلام الماديات طريق لمعرفة الروحانيات، فقال عليه السلام: "بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول يتثبت معرفته وبالفكر تثبت حتميته"(٣٨)، كما وجه في هذا الصدد إلى يعرف "الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر"(٣٩)، وهو منهج يستحق التأمل طويلاً، فالمادة التي طالما سعى الكثيرون لاستبعادها من الفهم الديني والعبادة، اشترطها

الإمام عليه السلام كشرط أساسي للتعرف على الله تبارك وتعالى، فالظواهر الطبيعية والكونية وخلق الله، يمكن الاستدلال بها لمعرفة الطريق إلى الخالق الكريم، ذلك الطريق الذي لا يتضح بحسب منهج الإمام عليه السلام إلا بتوظيف ذلك الاستدلال بالعقل، ليتحول إلى معرفة، وهما ما يشكلان الفكر الذي تثبت به الحقيقة.

وللإنصاف نقول: إن نهج الإمام علي عليه السلام في هذا المجال، تجاوز كل المقاييس المادية التي وضعها علماء عصر الأنوار، ولا نرى مبالغة في شيء، إذا قلنا إن الإمام أولى المادة في منهجه مقام لم يمنحه لها علماء عصر الأنوار، فهي لديهم أداة لفهم الطبيعية والعلم حسب، في حين لدى الإمام عليه السلام أداة لفهم الطبيعة والعلم وما بعد العلم، وهذا ما دعا إليه علماء عصر التنوير (عصر العقل)، فإذا ما وجد تعارض، فهو في التجرد الأعم الذي يتبناه علماء عصر التنوير، وليس في الهدف أو الأسلوب، ويعد هذا الأمر بإجماله من المشتركات بين مفهوم العقل عند الإمام عليه السلام وعلماء عصر التنوير الذين عولوا على العقل كمصدر أساس للوصول إلى الحقائق كلها.

ثالثاً- قطعية اعتماد الدليل العقلي:

لقد وصل حد اعتماد التنويريين على المنهج العقلي بعده المنبع الوحيد لتفسير الظواهر الطبيعية على مختلف أشكالها ومجالاتها، لأنه عندهم الأداة الوحيدة التي يحصل بها العلم اليقين المتولد من منهج البحث والملاحظة والتجريب، ومع إن الإمام علي عليه السلام في منهجه يضع العقل دائماً في إطار الدين، إلا انه عليه السلام يشارك التنويريين قيمة العقل وضرورة اعتماده كأداة للفصل بين حقائق الأشياء وفهمها، فالعقل عنده عليه السلام: "حُسَامٌ قَاطِعٌ"(٤٠)، وربما قصد عليه السلام من ذلك إن العقل هو الأداة التي تقطع الشك باليقين، لأنه لا يقبل الخطأ بل عول عليه السلام على دور العقل ابعد من ذلك، حين قال: "العاقل

من لا يحُدث بما ينكره العقول"[٤١]، فالإمام عليه السلام يرى بان من يحدث بما ينكره العقل فليس بعاقل، ومن ذلك قبول المتناقضات للوصول إلى فهم توافقي لظاهرة ما، وهو ما صرح به عليه السلام بحديثه: "إذا أردت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد، فحدثه في خلال حديثك بما لا يكون، فإذا أنكره فهو عاقل، وان صدقه فهو أحمق"[٤٢]، ذلك عين ما دعا إليه علماء عصر التنوير ممن وضعوا العقل ميزاناً وحيداً للتفريق بين الصواب والخطأ، وعده المعيار الوحيد الذي يقبلوه لفهم الظواهر وتأويلها.

وذهب الإمام علي عليه السلام إلى أبعد من ذلك في اعتماده على البحث عن الدليل بأنواعه كلها، ومن ذلك الدليل العقلي، ففي حديثه عليه السلام "مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلاَّ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلاَلَةً"[٤٣]، وهي دعوة صريحة في رفض العقل لمبدأ التوافق في قبول الحقائق والدعوات، سواء كانت مجرد فكرة أو نظرية أو قانون، وعد عليه السلام ذلك خطأ وعمل باطل، وهو يدفع بذلك إلى ضرورة التحقق بكل الوسائل بما فها التجريد العلمي والعقلي لإظهار صحة دعوة دون أخرى.

ومما تقدم يتبين بوضوح إن الإمام علي عليه السلام سبق علماء عصر التنوير في بناء منهج علمي لا يقوم على الأحادية، حتى لو كانت دينية في غير مسائل التوحيد، فقد أكد عليه السلام إن العلم لا يمكن أن يحصل الكمال له بفرض معرفة واحدة أو رأي واحد، بل عد من قدم على ذلك ليس من العلماء، وهو ما أشار إليه بحديثه عليه السلام: "ألا وَانَّ اللَّبيبَ مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجوهَ الآراء بِفِكْرٍ صائِبٍ"[٤٤]، وهذه قاعدة غاية في العلمية، وهي بحد ذاتها منهج عقلي وعلمي قائم بحد ذاته، فقد اشترط عليه السلام في اللبيب أن يطلع على كل الآراء المطروحة في كل قضية وفكرية، لذاك حين سأل عليه السلام عن أعلم الناس، أجاب: "من جمع علم الناس إلى علمه"[٤٥]، فمن يقبل ذلك تتولد لديه المعرفة والاستدلالات

العلمية الصحيحة التي تمكنه من سير غور المعارف فقه حقائقها، بل ذهب عليه السلام إلى ابعد من ذلك، حين اشترط أن يكون تقبل تبادل الآراء والأفكار ذلك ليس من باب المجاملة العلمية، بل من باب التفكر والتدبر في إمكانية الإفادة منها لتطوير عمل أو منهج ما بغية الوصول إلى تمام الفائدة .

رابعاً- استمرارية البحث وعدم الاكتفاء بالنتائج الآنية.

أشار الإمام علي عليه السلام إلى نقطة مهمة جداً في مجال البحث العلمي، وهي الحديث عن استمرارية العلم وتجدده في كل لحظة وعدم جموده، إذ عد عليه السلام العلم بحر واسع لا حدود له، يتجدد ويتطور يوماً بعد يوم، وهو ما أشار إليه صراحة بحديثه عليه السلام: "العلم يحدث يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة"(٤٦)، وفي خطبة له قال: "اعلموا أن الأمل يسهي العقل وينسي الذكر، فاكذبوا الأمل، فأنه غرور وصاحبه مغرور"(٤٧)، والقصد من الأمل هو استقرار النفس وجمود العقل، وعدم الاهتمام بتغير الأحوال وتطور الأمور، فهذا كله يؤدي إلى نسيان ذكر الله وعدم التواصل مع الآخرين، وبالجملة فيه حث على استمرارية البحث وعدم الاكتفاء بالنتائج التي تتحصل في زمن معين، وهو أمر تنبه إليه علماء عصر التنوير لهذه الحقيقة، ووضعوا في صلب منهجهم العقلي مواكبة التطورات الجزئية التي قد تؤثر على الصورة العامة للظاهرة موضوعة البحث والتحقيق مهما كان نوعها أو مصدرها.

خامساً- البحث وفق أسس منطقية وليس الفوضوية:

من الحقائق العلمية المهمة الأخرى التي ربما انفرد الإمام علي عليه السلام في الإشارة إليها، وشاركه فيها فيما بعد علماء عصر الأنوار، هي مسألة أن يكون العمل في أي مجال بما في ذلك مجال البحث العلمي وفق رؤية لموضوع البحث لئلا يذهب الجهد سدى، بقوله عليه السلام: "العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلا بعداً"(٤٨).

ولعل أروع ما ذكره الإمام علي عليه السلام بهذا الخصوص قوله: "اَلْعاقِلُ مَنْ

اَحْسَنَ صَنائِعَهُ وَوَضَعَ سَعْيَهُ في مَواضِعِه"[٤٩]، فهو بذلك عليه السلام لا يرى معناً للعقل إن لم يكن بإحسان الصنعة ووضع الجهد في موضوعه الصحيح الذي يتأتى فقط عن طريقة معرفة مقدمات العمل وآليات القيام به ما سيوصل إلى نتائج صحيحة، وان العمل على خلاف ذلك ووضع السعي في غير موضعه ليس من العقل في شيء، على أن لا يفهم من ذلك أن التجربة مرفوضة، بل العكس هو الصحيح تماماً، إذ أن التجربة لا تكون عشوائية ودون عمل مخطط لها، إذ لا يمكن أن تعد تجربة إلى بعد إدراك مقدماتها الصحيحة وتطبيق تلك المقدمات في آليات محددة سلفاً لدى القائم بها، ما سيقود إلى نجاح التجربة أو إعادة النظر بتفاصيلها عن عدم نجاحها.

وأسس الإمام عليه السلام في السياق نفسه، أي في المنهج العقلي قاعدة قلدها علماء عصر الأنوار والحديث، وهي الترجيح وفق أسس علميه منطقية، وليست لمجرد الاعتقاد الفكري المجرد عن مقدمات تشكل بداية لدليل مقبول لمتابعة حقيقة ما، بل اعد عليه السلام ذلك من شيم وصفات العلماء وأولوا الألباب، وهو ما أشار إليه صراحة بقوله: "اَلظَّنُّ الصَّوابُ مِنْ شيَمِ اُولِى الاَلْبابِ"[٥٠]، بل ذهب أبعد من ذلك حين عد ظن العاقل من دون دليل كهانة، كما في حديثه عليه السلام: "ظن العاقل كهانة"[٥١].

سادساً- التجربة:

مما لا ريب فيه إن الدين أو العلم، سواء كانا متعارضين وفق رؤيا البعض، أم يكمل أحدهما الآخر وفق رؤيا بعض آخر، أو هما واحد وفق رؤيا بعض ثالثة، فأن مجال عملهما واحد، وهو الإنسان، ومحيطه الواسع، فالإنسان يتكون في الغالب من أبعاد ثلاث، هي: البعد المادي بمفهومها الأعم، وبعده العقلي، ثم بعده الروحي، ولأن الدين أشمل وأعلم، فأنه سمي في الأبعاد الثلاثة جميعها، أما العلم فأنه سمي في بعدين منها على الأقل في

المرحلة الأولى، هما: البعد المادي والعقلي للإنسان، وبذلك فأنه يشترك مع العلم الذي يمثله هنا علماء عصر الأنوار في بعدين من أبعاد الإنسان.

ونشك إن اختلافاً كبيراً في أدوات التعرف على البعدين المادي والعقلي لدى الإنسان في المنهجين العلمي العقلي لعصر الأنوار والعقلي الديني عند الإمام علي عليه السلام، لأن كليهما يستخدمان الأدوات ذاتها، التي في مقدمتها التجربة، التي يعدها علماء عصر الأنوار روح البحث العلمي بعد الملاحظة والاستدلال، فبها يتم اكتشاف القوانين والظواهر وفهمها سواء ما تعلق منها بالإنسان أم بمحيطه بصورة أعم، فيما أقر الإمام علي عليه السلام الأدوات ذاتها قبل ذلك بسنين طويلة مضت، بل وعدها أداة توازن العقل إذا ما استخدمت وفق شروط صحيحة، لأنه العقل عنده عليه السلام أحد مصادر المعرفة، التي تتكون من الوحي والحواس والتجربة.

فالإمام علي عليه السلام وضع التجربة بمرتبة عظيمة، بعدها أحد مصادر المعرفة، وقرنها بالعقل والوعي والحواس، بل لا نبالغ إذا ما قلنا بأنه عليه السلام قدمها على المرتبة التي وضعها فيها علماء عصر التنوير، إذ قال عليه السلام: "الشقي من حُرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة"(٥٢)، كما قال عليه السلام في العلم، التي التجربة أحد مصادره، "رتبة العلم أعلى رتبة"(٥٣)، وهي أقوال في غاية الإبداع، وصف بها عليه السلام الإنسان الفاشل في الاستفادة من التجربة شقي، والشقاء تعني عدم فقه الدين أحوال الدنيا، كما وضح فيها قيمة العلم، وهي بإجمالها مقاربات علمية بحق فريدة في بابها.

سابعاً - الموضوعية:

على الرغم من صعوبة تحقيق هذه الصفة في أي منهج سواء أكان ديناً أو مادياً مجرداً، إلا أنها سمة منهجية وجدت طريقها في كلي المنهجين، العقلي الديني للإمام علي عليه السلام، والعقلي المادي لعلماء عصر التنوير، فالآخرون عدو

الموضوعية أساساً في الوصول إلى الحقائق وتقبلها، إذ اشترطوا أن يكون العالم أو قل (الفعل) مجرد من النوازع كلها التي يمكن أن تؤثر في الحكم النهائي للأشياء، لاسيما النوازع التي تتنوع بين تعصب ديني وتعصب فكري أو تعصب بشري معين، وهي شروط اختزلها الإمام عليه السلام في عبارات يكفي فقط ذكرها في هذا الموضع دون الاجتهاد في توضيحها أو التعليق عليها، لأنها مباشرة وفي صميم نقطة البحث، ومنها: "لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال"(٥٤)، وأن "غير منتفع من الحكمة عقل معلول بالغضب والشهوة"(٥٥)، فهو عليه السلام يرى إن العقل إذا ما ابتلي بآفات كالحقد والغضب والشهوة أو غيرها فقد موضوعيته، وربما فشل في الاستفادة من المقدمات التي توصل إليها العلماء قبله، وبالنتيجة تضر في الوصول إلى النتائج الحقيقية المطلوبة.

ثامناً- مشتركات أخرى بين المنهج العقلي الديني للإمام علي عليه السلام والمنهج العقلي المادي لعصر الأنوار:

قال الإمام علي عليه السلام: "صدر العاقل صندوق سره، لا غنى عن العقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب، اعقلوا الخبر إذا سمعتموه، عقل رعاية لا عقل رواية، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل، لا مال أعود من العقل، ولا عقل كالتدبير، وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة إلى معاد، أو لذة في غير محرم، ما استودع الله امرء عقلاً، إلا استنقذه به يوماً ما"(٥٦)، وهو حديث شخص به منهج الإسلام العلمي، وعكس من خلاله رؤية الدين الإسلامي إلى قيمة العقل والعلم، التي مثلها بعدد من القواعد العلمية التي أكد اعتمادها بهدف الوصول إلى حقائق الأمور، في مجالات الحياة المختلفة، وهي قواعد بإجمالها، شكلت الأساس العلمي الذي استند إليه بعد حين من الدهر التنوير، ولعل أبرزها:

١- اتهام العقل بصورة مستمرة، والتشكيك فيما وصل إليه من

استنتاجات علمية، لأن الثقة المطلقة تؤدي إلى حصول الخطأ وفتور العلم.

٢- عقل الأخبار الواردة، مهما كانت مصادرها، نقلية أم سمعية، عقل رعاية لا عقل رواية، لأن رواه العلم كثيرون لكن رعاته قليلون.

٣- إن كيفية الفعل تدل على كمية العقل، لذا ينبغي حسن الاختيار والإكثار من الاستظهار.

ولو تأملنا قليلاً في القواعد التي حددها الإسلام على لسان الإمام علي عليه السلام، للعقل وتوظيفه، لوجدناه لب ما دعا إليه علماء عصر التنوير أو أصحاب المنهج المادي، وان كان صورة مجردة بعيدة عن الدين، إلا أنها تلتقي معه بصورة اعتماد قواعد منطقية علمية لسبر العلوم وبلوغ مراميها، ففي القاعدة الأولى قال عليه السلام، "اتهموا عقولكم"، بمعنى اختبروها وشككوا في الكثير من المفاهيم ليحصل لديكم اليقين وتصلوا إلى حقائق الأشياء والعلوم، ولا تأخذوا بظواهر التعليلات من باب ثقة ورودها، وان كان عن مصدر ديني، لان الثقة بما يستقر عليه العقل دون بحث وتأمل وعمل وجد، هي الطريق لإيقاع العقل بالخطأ.

وهذا عين ما دعا إليه التنويريين وأصحاب المنهج العملي المادي، بل وحتى أصحاب المنهج التشكيكي، وان تطرفوا في تجريدهم للعقل، إلا أنهم التقوا مع منهج الإمام عليه السلام بإتباع مبدأ التشكيك واتخاذ العقل مطية للوصول إلى كل مفاصل الحضارة العلمية والأدبية والمعرفية، وربما يكمن الفرق الوحيد -كما أسلفنا- في مدى التجرد وقيمته التي يعتمدها الطرفان، فالإمام عليه السلام يعد العقلي متجرد بحدود معينة تلتقي بمفهوم ديني غيبي لا يقف بالضد من التجرد العقلي، بل ويدعو إليه، وبين تنويريين يدعون إلى تجرد عقلي، وربما ينبع

إصرارهم على استبعاد الدين من أية معادلة علمية كنوع من رد الفعل على ما فرضته المؤسسة الدينية على تفكيرهم وعلومهم ردحاً طويلاً من الزمن.

أما القاعدة الأخرى التي أشار إليها الإمام عليه السلام، قوله: "اعقلوا الخبر ما سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية، فان رواة العلم كثيرون ورعاته قليلون"، ومما لا إشكال فيه فان المنهج الذي أكد اعتماده الإمام عليه السلام، هو المنهج العملي المادي بجبنته العقلية الدينية، لا بجبنته المادية المجردة، لذلك دعا عليه السلام إلى تعقل ما يرد من أخبار، وان كانت في عصرنا الحديث تفسيرات علمية أو تأويلات طبيعية، والأخذ بها أخذاً مسلماً، بل لابد من تدبر الخبر أو التفسير عبر عرضه على العقل وأدواته العلمية.

وفي الخلاصة نقول: إن الاعتماد على العقل المجرد لم يكن محل إجماع حتى عند علماء عصر التنوير، وعموم علماء أوربا، ويكفي فقط أن ننقل ما ذكره الفيلسوف كانت عن نقده للفعل المجرد ليتضح الفارق، إذ قال: "يجب على العقل أن يقف في تصوره عند حد التجربة الحسية، إذ لا يمكن لأفكارنا أن تمتد إلى كنه الأشياء ولبابها في أنفسها، فإذا حاولنا أن نعرفها بالوسائل نفسها التي نعرف بها الظواهر تورطنا في التناقض والخطأ"، وقال: "إن ظهر الشيء كما يبدو لنا قد يكون مخالفاً كل المخالفة للشيء الخارجي قبل أن يجيء في دائرة حواسنا، ويستحيل على الإنسان أن يوف كيف كان ذلك الشيء في أصله وحقيقة إننا نجهل ما هية الأشياء وحقيقتها المستقلة عن إدراك الحواس، جهلاً تاماً، أننا لا ندري من الأشياء إلا كيفية إدراكنا لها"، وبعد كل ذلك توصل كانت إلى حقيقة عبر عنها بقوله: "إذا ظن العلم انه يعالج الأشياء في نفسها، أي كما هي في حقيقتها، فهو ساذج مخدوع، الفلسفة أشد من العلم استخداما، إن زعمت مادة العلم كلها لا تتألف من مدركات الإنسان الحسية والعقلية، بل من الأشياء نفسها"[٥٧]. وهي رؤية علمية احتواها قبل سنين

طويلة الإمام علي عليه السلام، لما أشار إلى ضرورة اتهام العقل بصورة مستمرة، وهي روعة وقمة التحليل العلمي التي ميزت نهج الإمام عليه السلام العلمي .

الخاتمة:

اتضح جلياً ولكل قارئ منصف إذا ما جرد عقله من النوازع النفسية الدينية لوهلة من الزمن، ونظر بتجرد لكلا المنهجين العقلي الديني الذي تبناه الإمام علي عليه السلام والمنهج العقلي المجرد الذي تبناه علماء عصر التنوير، فانه سيجد ومن دون شك وجود مشتركات عديدة في آليات البحث التي اعتمدها الطرفان، كان الفضل في تأسيسها للإمام علي عليه السلام، الذي طبق فكر الإسلام وروح القران الكريم، وان كنا هنا لا نضعهما في ميزان التكافؤ العقلي والعلمي، لكن قلنا بأننا سننظر للأمر من منظور الأخر، إي بتجرد عن النزعة الدينية أو القدسية وننظر إلى الإمام عليه السلام رجل علم ومعرفة، وصاحب منهج ومدرسة علمية مرموقين.

نعم إن التشابه الكبير في آليات البحث العلمي لا يعني بالضرورة الوصول إلى حالة التطابق بين الطرفين، فالصحيح أن كلا الطرفان مارسا المنهج العقلي في إطارين مختلفين، إذا اطر الإمام علي عليه السلام كل القيمة العلمية للعقل والمنهج العقلي في إطار ديني، في حين اطر علماء عصر التنوير العقل والمنهج العقلي بإطار تجريدي مطلق، وان اضطر عدد كبير منهم إلى الاعتراف بعدم وجود تعارض جوهري بين المنهجين [إي الديني والمادي]، وحاولوا أن يفسروا احدهما بالأخر أو يعدون احدهما مكمل الآخر -كما مر بنا- غير إن الإمام علي عليه السلام اعتبر العقل تابع للدين، وصحة الدين تتبع قيمة العقل، لذا فان هناك نوع من الملازمة التي يستحيل التفريق بها بينهما، في حين تغافل بعض علماء عصر التنوير واعتبروا تلك الملازمة نوع من التبعية المقيدة التي تقيد العقل من الوصول إلى حقائق الظواهر الطبيعية.

إن التعارض الموجود بين المنهج الإسلامي المتمثل بمنهج الإمام علي عليه السلام ومنهج علماء عصر الأنوار (المنهج العقلي المجرد)، هو تعارض في تفاصيل وسائل تطبيق تلك المناهج، وإلا فان المنهجين يتطابقان في الهدف، وكثير من الأسس التي اشرنا إليها في البحث، وأما الاختلاف الظاهر بينهما فربما نشأ نتيجة لتعدد قراءة معنى مفردات من قبيل المادة والتجرد والعقل وغيرها، فتباين الفهم ولد صورة طغى عليها لون الاختلاف والتعارض بين المنهجين، ذلك التعارض الذي أثبتت أقوال الإمام علي عليه السلام عدم دقته من الناحية الموضوعية على الأقل وان عارضه أحياناً ورفضه أخرى من الناحية الشكلية، لوجود تطرف هنا أو تشدد هناك في مفهوم التجرد العقلي.

إن قراءة تراث الإمام علي عليه السلام قراءة معاصرة تسمح بخلق حالة من التجديد الفكري للإسلام، بما يجعله دين لكل زمان ومكان، ويمكننا بالنتيجة من طرحه ديناً عالمياً يتمتع بكل التحرر الفكري الذي يتطلبه التقدم العلمي عبر تحديده لقواعد ومبادئ عقلية تساعد على تطوير الإنسانية عبر بوابة العلم المادي المؤطر بمنهج علمي - ديني جديد.

أخيراً وبما إن المنطق العقلي يوصلنا في النهاية، إلا انه لا تعرض حقيقي بين المنهجين العقلي المجرد والمنهج العقلي المادي من حيث الهدف والغاية، إذن يمكننا ان نشذب الاثنان معاً لنصل إلى أقصى حالة من التوافق الذي يسمح في النهاية لنا اعتماد حالة التوافق الجديدة الناشئة في مؤسساتنا التعليمة لتطوير القدرات العقلية والعلمية بما يقود لإنتاج نوع جديد من الثقافة أو الحضارة بمفهومها الأعم.

هوامش البحث

(١) روبرت بالمر، الثورة الفرنسية وامتداداتها، ترجمة، هنري عبودي، دار الطليعة، (بيروت- ١٩٨٢م)، ص٥٦.

(٢) مجموعة مؤلفين، إشكاليات التعارض وآليات التوحيد: العلم والدين من الصراع إلى الاسلمة، ط١، (بيروت- ٢٠٠٨)، ص٣٠.

(٣) جاء التنوير بمعان مختلفة فهو مثلاً في المانيا يعني (التوضيح).

(٤) جوزيف هويلس، التحريف في المسيحية، ص٤٠٦.

(٥) مجموعة مؤلفين، إشكاليات التعارض، ص٢٨.

(٦) مجموعة مؤلفين، إشكاليات التعارض، ص ٢٨.

(٧) مهدي كلشني، من العلم العلماني إلى العلم الديني، ترجمة: سرمد الطائي، م. صادق العبادي، دار الهادي، (د.م- ١٩٩٨)، ص ٢٥.

(٨) مجموعة مؤلفين، إشكاليات التعارض، ص٣٠- ص٣٢.

(٩) هاشم صالح، معارك التنويريين والأصوليين في أوربا، دار الساقي، (د.م- ٢٠١٠م)، ص١٣.

(١٠) مهدي كلشني، من العلم العلماني، ص٢٥- ص٢٦.

(١١) عباس نيكزاد، التوفيق بين الدين والعقل في مدرسة الحكمة المتعالية، ترجمة: علي آل دهر الجزائري، ط١، (بيروت- ٢٠١٢)، ص ٩.

(١٢) محمد أسعد أطلس، التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، (بيروت- ١٩٥٧)، ص٤٥.

(١٣) المرجع نفسه، ص٦.

(١٤) زكريا هاشم زكريا، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، دار النهضة، (مصر ١٩٧٠)، ص١٠٣.

(١٥) أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (٣٢٩هـ)، الكافي، ط٣، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، (إيران- ١٣٨٨هـ)، ج١/ ص١٨٣.

(١٦) الكليني، (ت٣٢٩هـ)، الكافي، ط٣، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، (إيران- ١٣٨٨هـ)، ج١/ ص٢٠؛ الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة، ط٢، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، (قم- ١٤١٤هـ. ق)، ج١٥/ ص٢٠٧.

(١٧) الكليني، الكافي، ج١/ ص١٨؛ ابن شعبة الحراني (ت ق٤هـ)، تحف العقول عن آل الرسول، ط٢، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، (د.م- ١٣٦٣- ١٤٠٤هـ.ق)، ص٣٨٨.

(١٨) نهج البلاغة، تحقيق: محمد عبدة، (بيروت- د.ت)، ج٣/ ص١٣٧.

(١٩) المصدر نفسه، ج٣/ ص١٣٧؛ البلاغة، الكليني، الكافي، ج١/ ص١٨.

(٢٠) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص٤٥؛ علي بن محمد الليثي الواسطي (ت ق٦هـ)، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق حسين البيرجندي، دار الحديث، (د.م- ١٣٧٦ ش)، ص٥٣٩.

(٢١) الواسطي، المصدر نفسه، ص٣٢٧.

(٢٢) أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت٢٧٤هـ)، المحاسن، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، (إيران- د.ت)، ج١/ ص١٩١؛ الكليني، الكافي، ج١/ ص١٠؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥/ ص٢٠٥.

(٢٣) البرقي، المحاسن، ج١/ ص١٩١؛ الكليني، الكافي، ج١/ ص١٠.

(٢٤) نهج البلاغة، خطبه ١٨٤؛ الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص٦٧.

(٢٥) هاشم صالح، معارك التنويريين والأصوليين في أوربا، ص١٣؛ روزنتال ويدوين، الموسوعة الفلسفية، ت. سمير كمر، دار الطليعة، (بيروت- ١٩٨٧)، ص١٤٥- ص١٤٦.

(٢٦) عباس نيكزاد، التوفيق بين الدين والعقل، ص٩.

(٢٧) للتفاصيل راجع: عباس نيكزاد، التوفيق بين الدين والعقل، ص١٠- ص١١.

(٢٨) يمكن ملاحظة العقل ومنزلته في الدين الإسلامي، والعلاقة بينه وبين العلم في كثير من الآيات والروايات، فقد ورد في القران الكريم مشتقات كلمة عقل (٤٩) مرة ومشتقات الفكر (٢٨) مرة والعلم ومشتقاته مئات المرات، عباس نيكزاد، التوفيق بين الدين والعقل، ص١٠- ص١١.

(٢٩) نخبة من المؤلفين، الحوزة العلمية في فكر الإمام الخامنئي، مركز الهدى للدراسات الحوزوية، (قم- ٢٠١٠)، ص٣٥.

(٣٠) ينظر: عمر عبيد حسنة، الشاكلة الثقافية، مساهمة في إعادة البناء، ط١، المكتب الإسلامي، (بيروت- ١٩٩٣م)، ص١٢٦.

(٣١) محمد حنفي، الدين الماركسية، مقال منشور على الموقع الإلكتروني (ttp://www.mokarabat.com).

(٣٢) أبو جعفر ابن بابويه القمي، علل الشرايع، (النجف- ١٩٦٣م)، ج٢/ ص١٠٣؛ الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، الفصول المهمة في أصول الأئمة، تحقيق: محمد بن محمد حسين القائيني، (قم- ١٤١٨هـ)، ج٣/ ص٢٤٣.

(٣٣) قطب الدين الراوندي (ت٥٧٣هـ)، الدعوات، تحقيق مدرسة الإمام المهدي، (قم- ١٤٠٧هـ. ق)، ص٢٢١؛ محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، بحار الأنوار، ط٢، مؤسسة الوفاء، (بيروت- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ج٨/ ص١٥٩.

(٣٤) الموفق بن أحمد بن محمد المكي (ت٥٦٨هـ)، المناقب، ط٢، تحقيق: الشيخ مالك المحمودي، مؤسسة لنشر الإسلامي، (قم- ١٤١١هـ)، ص٣٧٦؛ كمال الدين ميثم بن علي البحراني (ت ق٦)، شرح مئة كلمة، تحقيق مير جلال الدين الحسيني، نشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، (قم- د.ت)، ص٨٧.

(٣٥) الكليني، الكافي، ج١/ ص٩٠؛ محمد بن الفتال النيسابوري (ت٥٠٨هـ)، روضة الواعظين، تحقيق السيد محمد مهدي الخرسان، منشورات الرضى، (قم- د.ت)، ص٣٣؛ الحر العاملي، الفصول المهمة، ج١/ ص١٤٩.

(٣٦) مجموعة مؤلفين، إشكاليات التعارض، ص٤٢.

(٣٧) الكليني، الكافي، ج١/ ص٢٩؛ محمد باقر المحمودي، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، مطبعة النعمان، (النجف الأشرف- ١٣٨٥هـ)، ص١٩٠.

(٣٨) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص٦٢؛ النيسابوري، روضة الواعظين، ص٢٠؛ الحر العاملي، الفصول المهمة، ج١/ ص٢٤٣.

(٣٩) الكليني، الكافي، ج٣/ ص٢٧٠؛ الصدوق، التوحيد، تحقيق السيد هاشم الحسيني الطهراني، جماعة المدرسين، (قم- ١٣٨٧هـ)، ص٢٨٦؛ النيسابوري، روضة الواعظين، ص٣٠.

(٤٠) نهج البلاغة، ص٩٩؛ النيسابوري، روضة الواعظين، ص٤٢٠؛ الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص٢٤.

(٤١) جعفر بن محمد علي الصادق (ت١٤٨هـ)، (منسوب له)، مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، ط٣، مؤسسة الأعلمي (النجف-١٤٠٠هـ)، ص١١٣.

(٤٢) الصدوق (ت٣٨١هـ)، معاني الأخبار، تحقيق علي أكبر الغفاري، مطبعة انتشارات إسلامي، (د.م- ١٣٦١ هـ. ش)، ص٢٩١؛ محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين في الحوزة، (قم- د.ت)، ص٢٤٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج١/ ص١٣١ وج١٠٨/ ص١٦.

(٤٣) نهج البلاغة، ج٤/ ص٤٣؛ المحمودي، نهج السعادة، ج٨/ ص٤١٦.

(٤٤) الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص١٠٨.

(٤٥) البرقي، المحاسن، ج١/ ص٢٢٠؛ النيسابوري، روضة الواعظين، ص٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج١/ ص٩٧ وج٢/ ص٩٧ وج٧٤/ ص١١٢.

(٤٦) الكليني، الكافي، ج١/ ص٢٢٥ وج٨/ ص٩ وص٤٠٣.

(٤٧) نهج البلاغة، ج١/ ص١٥١.

(٤٨) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، آمالي الصدوق، ٣٤٣ /١٨، بيروت، ١٩٨٠؛ المجلسي، البحار:١ /٢٠٨ /٦.

(٤٩) البرقي، المحاسن، ج١/ ١٩٨؛ الكليني، الكافي، ج١/ ص٤٣؛ ابن شعبة الحراني، تحف لعقول، ص٣٦٢.

(٥٠) محمد ري شهري، ميزان الحكمة، دار الحديث، (د.م- د.ت)، ج٢/ ص١٧٨٤.

(٥١) البحراني، شرح المائة كلمة، ص٨٥؛ المحمودي، منهج السعادة، ج٨/ ص١٩٧.

(٥٢) نهج البلاغة، ج٣/ ص١٣٧.

(٥٣) الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص٢٦٩؛ علي زيعور، حكم وأمثال علوية، نقلاً عن مخطوطة تحمل رقم ٣٩٥٤ في المكتبة الوطنية بباريس، نشر جزء منها في كتاب (علي إمام الأمم)، ج١/ ص٣٣٦.

(٥٤) البحراني، شرح المائة كلمة، ص٦٨.

(٥٥) شهري، ميزان الحكمة، ج١/ ص٧٥.

(٥٦) نهج البلاغة، ج٤/ ص٤؛ النيسابوري، روضة الواعظين، ص٦؛ الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص٣٠٢.

(٥٧) توفيق الفكيكي، قيمة العقل البشري ونقده في فلسفة الأمام علي عليه السلام والفلسفة الحديثة، "الإيمان" مجلة، العدد ٣-٤، ١٩٦٧، ص٤٤-٤٥.